

## الفصل الخامس عشر

### قوانين مصر في دولة السلطان سليم بن با يزيد

. نور الله مضجعهما بأنوار الغفران .

قدم سليم من الإسكندرية ويأذن من علماء مصر جميعاً أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن في ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحي والشيخ مرزوق كفاي وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سليم خان بن با يزيد خان أيد الله سلطته إلى آخر الزمان .  
وبإذنهما الشريف سكت العملة وكتب عليها «صاحب النصر ضارب النصر عز والنصر في البر والبحر السلطان بن السلطان سليم خان بن با يزيد خان - عز نصره - مصر سنة ٩٢٢» .

وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطاني، وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم في السن والرتبة، ووضع سليم يده في يد خيرة بك، وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليمي وريشة نفيسة، وعلى ظهره خلعة فاخرة من السمور، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع، وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء، وقال: لقد جعلتك يا خير بك وزيراً ونائبى في هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام فأنا لا رغبة لى فى شىء من مصر، لقد ظفرتُ بقلب خادم الحرمين الشريفين وكفى، ووقفت جميع محاصيل مصر على التى ﷺ فاشهد ومن الآن فصاعداً يا خير بك أنت مولى هذا الوقف؛ فأحسن خدمته .

ومنح من يتبعون موكبه اثني عشر ألف دينار ذهباً كما منح خدام القصر ثلاثمائة منطقة مرصعة، كما منح اثني عشر سرجاً مزياً بالجواهر واثنتي عشرة جمعة للقائمين على سياسة الخيل وسبع قسي خسرانية، كما منح خياماً ذات ثلاثة أعمدة ومظلة، وجعل لأربعين من خدام القصر طوغين لكل منهم، كما جعلهم أمراء على مصر .

وجعل مائة من الأغوات بكوات من الشراكسة، وأمر بأن يُعطل الديوان ثلاثة أيام في الأسبوع وأيام العظلة هي الجمعة والسبت والأربعاء ويحضر قاضي العسكر الديوان خمسة أيام ويقدم للديوان في كل يوم كيسان من دنانير (١) ، ويقدم ثلاثة آلاف صحف من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد (.....) (٢) ، وجعل سليم ذلك قانوناً لجاوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الأئمة والمؤذنين راتباً، ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافاً، وفي دواوينهم يبسط كل يوم سباط في الصباح وسباط في المساء، وذلك من المال السلطاني، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سباطهم يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفي كل وقت من أوقات الطعام تفرغ الطبول لينبه جميع الجياع، وجعل ذلك قانوناً، ودامت هذه النعمة وما كانت مثل هذه النعمة في بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطاني، ويقدم من قِبَل السلطان لخاصته اثنا عشر حملاً وسبع وأربعون ألف أقة وكان ولاية مصر وبغداد والحبشة واليمن والعراق يضعون ريشة على عمائمهم المعروفة بسليمي، وكان هناك خان التتار يحكم في بلاده ويأتي بعده في الترتيب والى مصر، ثم ولاية العراق فتبابعة اليمن، وأخيراً بُودم وهؤلاء الوزراء الخمسة يُتوبون عن السلطان في الحكم ولهم صفته.

وبما أنهم كانوا يضعون الريشة على رءوسهم كانت لهم الدرجة على من سواهم من الوزراء. ووزير مصر طبقاً للخاصة السلطانية إذا ما عين قائداً على الحبشة أو اليمن أو العراق فإنه يلزم عليه أن يمضى به هو وجنوده و(٣) إلى هذه المناطق، وبهذا صدر قانون سليمان. أما في الوقت الحاضر بما أن الغلبة لجند مصر فإن جميع الأقاليم يسرى عليها قانون سليم ولا يبقى شيء تابعاً للوالي إلا أنه يسكن القلعة الداخلية مع ألف من جنوده، وأغواته جميعاً يعيشون على ما يصرف لهم من مرتبات طبق القانون، كما يوجد أربعة وعشرون رئيساً للموانى وهم يعيشون على الكفاف. وللباشا ثلاثمائة

(٣ : ١) بياض في الأصل.

من الأغوات وخيامهم، وفى كل عام تُوزَع عليهم الأقمشة والثياب والقمصان والنعال كما يتم كساء كعبة الله بالكسوة السوداء من وقف السيدة شجرة الدر قانوناً مرعياً. لأن شجرة الدر وهى من ملوك السلف كانت تدفع مرتباً سنوياً لأغوات الخارج وأغوات الداخل التابعين لها؛ وقد أحصى السلطان سليم أوقاف شجرة الدر هذه وقال: إن شجرة الدر وهى امرأة كست الكعبة بالحرير الأسود، وقد أصبحت الآن سلطان مكة والمدينة وعلى أن أكسو الكعبة الشريفة من أعلاها إلى أسفلها بالدباج والقماش المزركش وبالذهب واللؤلؤ إلا أن علماء مصر جميعاً وشيوخ المذاهب الأربعة والشيخ أبو السعود الجارحى لم يقرروه على ذلك فيما سلف ذكره، وقالوا إن كسوة شجرة الدر لم يتيسر لأحد غيرها، إلا أن الله قدَرها على ذلك، والآن هذا الوقف وقفها، وشرط الواقف كنص الشارع<sup>(١)</sup>. فغبطها سليم على ذلك وقال: مضت المرأة، فما أعظم ما عملت من خير لم يتيسر لغيرها من الملوك.

وماذا يمكننا أن نصنع نحن فى مكة والمدينة، فقام بعمل كسوة باب الكعبة الشريفة بالحرير الأخضر. ومزركشة بالذهب، وجدّد بناء مقام إبراهيم - عليه السلام - وجعل الصندوق الشريف مكسو بالذهب وستارة باب منبر الحرم الشريف مزركشة بالذهب وعمّر ورمّم الحرم الشريف. أما البيت الذى ولدته فيه السيدة أميينه - رضى الله عنها - فقد جدّدت قبته وكُست بالرخاص. وبنى فى مكة مائة أثر للسلطان وتُليّت الخطبة لسليم أول ما تليت لآل عثمان فيها، وجعل على قبره الشريف ﷺ من الجواهر ما يبهر العيون ووزّع الصدقات فى المدينة بلا حساب وجعل كمال باشا زاده قاضى مصر يقوم بمسح ألف قرية وقصبة وبلدة فى مصر. والحاصل أنه أمره بأن يسجل كل ما يطير فى الجو من طائر وما يدب على الأرض من دابة وما يسبح فى البحر من سمكة، ووزع المقاطعات على المتزمتين والأمناء. ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. ودُونت جميع قرى ولاية مصر وعددها ( )<sup>(١)</sup> قرية، وهى منقسمة أربعة أقسام. والقسم الأول ( )<sup>(٢)</sup> قرية وهى جميعاً من أوقاف ملوك السلف، وقدر الوقف

(١، ٢) بياض فى الأصل.

بعدد أفدنته ووكل به ناظر يدير شتونه ويحصل إيراده فيعطى منه رواتب جملة الأئمة والمشايع والمسّاحين والمعرفين، أما ما يتبقى من ذلك فيرد إلى المال الأميرى وسنّ بذلك قانون خاص .

أما القسم الثاني فهو قرى الكشوفية، وهم (١) قرية على كل منها كاشف وهى خاصة بالباشا ويعاونه فى جميع تحركاته مائة أو مائتا جندى، ويحصل الباشا أموال الكشوفية وقدرها مائتا كيس فى العام، أما فى زماننا إذا أصبح البلد عاطلاً عجز الملتزم عن دفع ما عليه من أموال ويغادر القرية وتؤول إلى الباشا وتصبح قرية كشوفية ويجمع الباشا الرعايا ويخطرهم بذلك، ويزرعها ويحصل منها المال، وإذا كان لها من يطلبها أعطاه الباشا إياها لأنه عمرها بنفسه .

وقسم ثالث هو أراض خاصة بالسلطان فيها كشافون لهم رتبة البك، وعددها سبع عشرة وجملتها (٢) ألف قرية تحت إدارة الكاشف، وكل كاشف يقدم له مائة رجل من السبع فرق، ويطعم الكاشف كذلك خمسمائة أو ستمائة من السكان (٣)، ويحصل المال السلطانى من ولايته والثالث الأول والثالث الثانى والثالث الثالث والمال الصيفى والشتوى وما إلى ذلك من أموال يجمعها بمعاونة العسكر ويدفع منها رواتب الجند ونصيب خزانة السلطان، وثمة ضريبة من خمسمائة أو ستمائة أو ألف كيس من القروش تدفع من كيس السلطان لمن يطوف الولايات من أفراد الفرق السبع ولم يقنع الجورباجية (٤) بخمسة أكياس فأطلقوا بعض المجرمين من سلاسل الكاشف .

والقسم الرابع إذا كان الملتزم فى شدة آلت قريته للدولة ويبيعها الباشا فى المزاد بأربعين كيساً أو خمسين إلى مائة كيس وكل رعاياه وتركاته تصبح مزاداً سلطانياً .

ومن قانون سليم أن يأخذ الباشا ثمن ما يبيع ويلتزم من اشترى للبلد حين التسجيل إذا أخذ (٥) عليه تسديد كل عام المرتبات وصرّة مكة والمدينة وكل ما فاض سواء كان كيساً أو مائة كيس كان مالاً له، ويُعمر القرية ويكون له حق التصرف فى

(٣) السكان: نوع من المشاء .

(٥) بياض فى الأصل .

(١ ، ٢) بياض فى الأصل .

(٤) الجورباجية: قسم من الضباط فى فرقة الانكشارية .

تلك القرية مدى حياته، ولا تؤول إلى أبنائه بعد وفاته بل تصبح ملكاً للدولة، وسُنَّ بذلك قانون.

وقد أقام سليم فى مصر عام، ثم اتجه إلى رشيد والإسكندرية سنة، ووصل إلى إستانبول عام ٩٢٣هـ وتوفى عام ٩٢٦هـ وخلفه ابنه سليمان الملقب بسليمان الأصفر.

**القسم الخامس:** ما يدفعه كل ما فى مصر من الكفرة واليهود والقبط والأرمن والفرنجية بناء على شريعة النبى ﷺ وحاصل الكلام أن أمين الجوالى حاكم آخر ويسلم مائة ( )<sup>(١)</sup> إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى، ويرسل الصرة إلى مكة والمدينة كل عام مع أمير الحاج.

**والقسم السادس** كل معمور من القرى فى مصر يرسل ريعه إلى آغا دار السعادة\* باسطنبول، وإذا مات الأغوات يسجل الباشا جميع قراهم ومخلفاتهم وهذا طبق قانون سليم وفى عهد ( )<sup>(٢)</sup> وإبراهيم باشا صدر فرمان يقضى بتعيين آغا أميناً لبيت المال من قبل أغوات القرى، وبناء على أمر ( )<sup>(٣)</sup> حفظ كل جزئى وكل كلى، ويعين الباشا كذلك آغا مباشراً ويوقع جميع ( )<sup>(٤)</sup> عليها؛ ويعرض الباشا على السلطان ويأتى من الأستانة رئيس البوابين أو ( )<sup>(٥)</sup> والأموال والقرى المذكورة تمنح لعبدٍ أو تُباع ( )<sup>(٦)</sup> وعلى ذلك فإن الأغوات السود يؤدون مال قراهم إلى السلطان، ومهما كان قدر ما يتبقى فإنهم يتصرفون فيه على أنه خاص بهم.

**أما القسم السابع** فبموجب قانون سليم يُسجل الباشا ما يتقاضاه الانكشارية والعزب والمتفرقة، والمتطوعة، والجند حملة البنادق، والأيتام، والجوالين وجميع طوائف الجند، ولكن منذ عام ١٠٧٠ تغلبت فرقة المستحفظان أو الانكشارية وفرقة العزب واستولوا على بيت المال لأنفسهم، وهُم عدة آلاف من الفلاحين من المواطنين استولوا على بيت المال وإذا ما أمروا بالحرب فإنهم يحصلون على نفقاتهم من بيت المال. وإذا ما اعتنق كافر الإسلام واتفق له أن وصل إلى بابهم يكسوه، كما يقدمون للغريب الغذاء والكساء

(١ : ٦) بياض فى الأصل.

\* أغاندار السعادة: رئيس الأغوات العاملين فى القسم الداخلى من القصر العثمانى الذى يعيش فيه السلطان مع نسائه وهو المسئول الأول عن تنظيم العلاقة بين هذا القسم والعالم الخارجى. ويتمتع بدرجة رقيقة من البروتوكول العثمانى، كما أنه المسئول عن أوقاف الحرمين الشريفين.

وإذا ما وقع أحد مواطنيهم أو زملاؤهم في أسر الكفار يدفعون له فدية قدرها عشرة آلاف قرش ويخلصونه من أسره.

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الباشا أن يسيطر على بيت المال ولكنه يسيطر على بيت مال الغير من العامة والخاصة، ويكلفون جاويشية الفرق السبع وقاضى العسكر يكلفون القسّامين بتدوين المال، وبإذن أغا الباشا يودعون المال فى خزانة الباشا، لأن على الباشا التزاماً يرعاه، وتوزع الرواتب من المال المحصل، وإذا ما ظهر وارث لمتوفى واستطاع إثبات ذلك فإنه يطلب مال قريبه المتوفى من الباشا بموجب دفاتر جاويشية الفرق السبع ودفتر القسّام؛ وينال الوارث حقه.

**القسم الثامن:** القرى الموقوفة على مكة والمدينة فى أقاليم مصر يرسل منها مصروفات قدرها اثنان وستون ألف كيس مع خمسة وستين ألف دينار من ذهب فى الصرة وتسلم الصرة إلى أحد أغوات الباشا وسبعمئة جندى من السبع فرق، ويسلمونها أمين الصرة فى الشام الشريف، وعليه إحضارها إلى المدينة ولذلك قانون مرعى، ومن قبل كان السلطان سليم يرسلها من اسطنبول وكان قانوناً سليماً، كذلك يُرسل من مصر ستمائة كيس من ستة آلاف وقف وكان يمضى بها أمير الحج المصرى لتسليمها إلى جميع الأشراف والمشايخ والمجاورين فى مكة والمدينة.

**أما القسم التاسع:** فهو أن ما يتحصل من أقاليم مصر وقراها وعددها سبعمئة قرية وقصبة مثل مطويس طاروط الشريف وصنبو وجملته ( )<sup>(١)</sup> أردب من الغلال تشحن فى سفن تسمى السفن المحمدية إلى مكة والمدينة وسوف تذكر القوانين الأخرى فى موضعها.

\* \* \*

(١) بياض فى الأصل.